

## العمارة في العصر السلجوقي

يعتقد بأن السلاجقة هم قوم من التركمان، فالسلاجقة هم الأتراك الذين قدموا من تركستان ووسط آسيا، وعبروا بلاد فارس والعراق، ليستقروا في آسيا الصغرى والأناضول ليؤسسوا الدولة المعروفة الآن بتركيا. كان السلاجقة الأتراك قد وصلوا إلى مناصب رفيعة خلال حكم العباسيين، وأصبحوا ذوا شأن وقوة في أواخر العصر العباسي خاصة في العراق وإيران. حتى استولى السلطان السلجوقي طغرل على مدينة بغداد في عام /447هـ-1055م/، دون أي مقاومة ومباركة من خليفته العباسي القائم بأمر الله، الذي لقب طغرل بك السلجوقي بملك الشرق والغرب، وهكذا بدأ عصر الدولة السلجوقية والذي امتد من عام /447هـ-1055م/ إلى عام /656هـ-1258م/.

شهدت العمارة الإسلامية في عهد السلاجقة تطورا هاما، ولاسيما في مجال بناء المدارس- حيث يعتبر السلاجقة أول من أوجد نظام بناء المدارس العامة- المساجد وبناء الأضرحة والمقابر، كما اهتموا ببناء الحصون والقلاع بعد أن داهمت الحملات الصليبية المدن الإسلامية في المشرق العربي.

كان الطابع العسكري هو الطابع المميز للعصر السلجوقي، وغالبا يقود الجيوش السلجوقية مماليك من الأتراك، ولما حل الضعف بالدولة السلجوقية، استقل هؤلاء القادة بحكم

البلاد التي يتولون إمارتها. ففي دمشق أعلن طغتكين سلطنته في دمشق، وعماد الدين الزنكي في حلب. واشتهر الزنكيون ولا سيما نور الدين ومحمود الزنكي بمقاومة الحملات الصليبية، كما يعود لهما الفضل في بناء وتجديد العديد من القلاع والحصون في سورية، إلى جانب تشييد العديد من المدارس والبيمارستانات، وغيرها من الأبنية التي ما زال قسما ضئيلا منها قائما إلى عصرنا الحالي.

وانتهت دولة الأتابكة في سورية بموت نور الدين محمود بن زنكي في عام 569هـ- 1173م، وبدأ بعده الحكم الأيوبي في عام 1174م، وتوحدت في ظلّه مصر وسورية، واستمر العهد الأيوبي حتى عام 1259م، حيث قضى عليه في مصر انقلاب المماليك عام 1250م، وفي الشام هجوم المغول عام 658هـ- 1259م.

### المدارس:

قام السلاجقة ببناء العديد من المدارس لتعليم المذاهب الإسلامية لمواجهة المد الفاطمي، ويعود الفضل في تشييد المدارس، إلى الوزير السلجوقي نظام الملك الذي شيّد عددا منها في نيسابور وأصفهان وبغداد والموصل.

يضم المسقط الأفقي للمدارس: إيوان- الأروقة الجانبية- القاعات خلف الأروقة- المصلى- الصحن يتوسطه حوض ماء. ويعود الفضل في إدخال فكرة بناء المدارس إلى سورية لنور الدين زنكي، حينما بنى المدرسة النورية في دمشق عام 1167م.

### المدرسة النورية بدمشق:

تقع إلى الجنوب من سوق الحميدية -سوق الخياطين بدمشق، شيّدت عام 563هـ- 1167م. أدخل على المدرسة الكثير من التعديلات والإصلاحات، ولم يتبق منها سوى مخططها الأصلي.

أنشأها " نور الدين زنكي" ما تزال بحالة جيدة ، عدا إيوانها الشمالي فقد أقتطع جزء منه لتوسيع الطريق خلفه ، ندخل إلى المدرسة عبر بوابة مفتوحة على سوق الخياطين ، يليها دهليز يؤدي إلى صحن المدرسة ، الذي تتوسطه بركة ماء مماثلة لبركة البيمارستان النوري.

تفتح على الصحن (3 أووين) في الشرق و الغرب والشمال ، تحتل القبليّة ( قاعة الصلاة ) الجهة الجنوبية ، و تفتح على الصحن ب(3 أبواب) أوسطها أكبرها.

في الركن الجنوبي الشرقي من المبنى ، على يسار الدهليز ، توجد " تربة نور الدين الزنكي " التي تضم ضريحه ، تعلو التربة ( غرفة الضريح ) قبة مخروطية مقرنصة من الداخل والخارج (كقبة البيمارستان )، وتتخللها النوافذ، وتتوجها في القمة قبة صغيرة مفصصة على هيئة الصدفة. وقبة التربة من المقرنصات الرائعة ذات الرأس الموشوري، وتتألف القبة من تسلسل طبقات من الخلايا الفراغية يحيط بأسفلها قبة مربعة الشكل، وتحيط بدائرة القبة ثلاث طبقات من المقرنصات ثم يلي ذلك قمرية لدخول النور والهواء ويلاحظ أن المقرنصات الممثلة في هذه القبة بشكليها الرئيسيين الأول عبارة عن ورقة مجوفة والثاني رأس هرمي.

وتضم المدرسة مجموعة من الغرف للطلبة موزعة على جوانب الإيوانات في الطابق الأرضي، و في الطابق العلوي الذي يصعد إليه بسلم ، مدخله في دهليز المدرسة. ويستعمل البناء حالياً كمسجد يعرف بمسجد النورية.

ومن المدارس التي شيدت في دمشق خلال هذه الفترة، المدرسة العروخشاهية التي شيدت في عام /1183م/، والمدرسة الحلاوية بحلب عام /1149م/.

### المدرسة الحلاوية بحلب:

كان مبنى المدرسة في الأصل كنيسة للقديسة هيلانة في حلب، وصالح عليها نور الدين زنكي، وحولها إلى مدرسة عام /543هـ- 1149م/، تقع المدرسة بالقرب من الجامع الكبير مقابل مدخله الغربي.

تضم المدرسة عناصر معمارية غير متجانسة، بسبب استخدامها السابق ككنيسة. كان للمدرسة صحن مركزي كبير يتوسطه حوض للماء، ويحيط بالصحن الإيوان وبيت الصلاة، وفي داخل الإيوان محراب خشبي بديع الصنع يعود تاريخه إلى عام /643هـ- 1245م/.

### البيمارستانات:

شيد الأتابكة ولاسيما في عهد نور الدين زنكي العديد من البيمارستانات في دمشق وحلب. ومن أهمها البيمارستان النوري في دمشق وحلب، الذي مازال جزء كبير منه قائماً إلى الوقت الحاضر، ويقع في محلة الجلوم الكبرى بالقرب من سوق الجمرك، وتم بناءه في أواسط القرن السادس الهجري- القرن الثاني عشر الميلادي.

**تعريف البيمارستان :** "بيمارستان" كلمة فارسية مركبة من جزأين "بيمار" ومعناها المريض، و"ستان" الدار، وعند جمعها تعنيان "دار المرضى"، والبيمارستانات كانت بمثابة

مستشفيات ومدارس للطب، يعالج فيها المرضى من جميع الأمراض بما فيها الأمراض النفسية. أطلقت على المستشفيات في العصور الإسلامية، وأخذت أحياناً تسمية أخرى هي " دار الشفاء".

### - البيمارستان النوري في دمشق:

بناه السلطان " نور الدين الزنكي " عام /549هـ/، ثم وسعه الطبيب " بدر الدين " ابن قاضي "بعلبك" عام/637هـ/، وأضيفت إليه دور كانت حوله ليتسع إلى عدد اكبر من المرضى، وقد تم ترميمه منذ سنوات و تحول إلى متحف للطب العربي.

يقع في قلب مدينة دمشق القديمة في الحريقة، جنوب غرب الجامع الأموي، شرق سوق الحميدية.

يعتبر البيمارستان النوري من أهم المباني التاريخية في مدينة دمشق، وهو أحد ثلاثة (بيمارستانات) شيدت فيها. الأول بني قبله وكان يعرف باسم (بيمارستان الدقاقي) ثم سمي بالعتيق بعد بناء البيمارستان النوري، والآخر بني في منطقة الصالحية وهو البيمارستان القيمري.

اشترط السلطان نور الدين عند بنائه في وقفه أن يكون مخصصاً للفقراء والمساكين، وأوقف عليه جملة كبيرة من الكتب الطبية. وكان يتسع لألف وثلاثمائة سرير، يفد إليه الأطباء من كل البلاد. ولا يمنع منه الأغنياء، إذا لم تتوفر بعض الأدوية إلا فيه، ومن جاء إليه، فلا يمنع من شرابه كائناً من كان.

وبالنسبة لأقسامه فقد احتوى البيمارستان على أقسام لكل منها أطباؤه المختصون منها قسم الأمراض "الباطنية"، قسم "الجراحة"، قسم أمراض العين- "الكحالة"، وقسم لعلاج الأمراض "العقلية"، إضافة إلى أقسام متممة تشبه ما يسمى اليوم "العيادات الخارجية"، فقد ذكر "ابن أبي اصيبعة" عن الطبيب "رضي الدين الرحبي" بأنه كان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي إلى البيمارستان وصفة أدوية يصرف من البيمارستان.

كان البيمارستان يؤدي وظيفة هامة بالإضافة إلى معالجة المرضى، وهي تدريس وإعداد الطلاب ليكونوا أطباء، وقد عمل في الطبابة فيه أشهر الأطباء العرب، منهم ابن النفيس والزهرراوي. وكان المرضى يتلقون الدواء والغذاء والكساء مجاناً حتى يتمثلوا للشفاء.

زاره الرحالة "ابن جبیر" عام 580هـ/ ووصفه، وتحدث بإعجاب عما يجري فيه من أنواع العلاج والجراحات.

يتألف المبنى من صحن أطواله /20×15م/ تتوسطه بركة ماء مستطيلة /4.5-7م/، في أركانها حنايا. تحيط بالصحن أربعة أواوين متقابلة أقواسها مدببة وأكبرها الإيوان الشرقي، وأربع قاعات رئيسية موزعة في أركان البناء، لها أبواب على الصحن.

للمبنى مدخل يبدأ بباب مفتوح في إيوان قليل العمق تعلوه المقرنصات، ويؤدي إلى دهليز يتكون من قاعة مربعة مسقوفة بقبة من نوع جديد، يظهر للمرة الأولى في الشام، وهي تشبه القباب المخروطية التي ظهرت في العراق، لها شكل مقرنص من الداخل والخارج، أما بقية السقوف في المبنى أقبية مهدية أو متقاطعة.

وعثر على كتابة تؤرخ إصلاحات في عهد "الناصر محمد بن قلاوون"، وابنه السلطان "حسن" /سنة 749هـ/، لعلها تتعلق بالزخارف الجصية الملونة.

توجد نوافذ فوق الأبواب تقوم مقام القوس العاتق الذي يخفف الحمل عن النجفات، فضلاً عن دورها في الإنارة والتهوية، أقواس النوافذ مدببة، وتغلق هذه النوافذ بستائر جصية /شمسيات/ ذات أشكال هندسية يحيط بها إطار من الزخارف النباتية.

في الإيوان الشمالي وزرة من الرخام الملون، فيها محراب مسطح، نقشت عليه عروق نباتية متقنة، و تملأ زواياها الخارجية حشوة من الفسيفساء الرخامية، و في أعلى الوزرة شريط من الحجر السماقي، نقشت عليه كتابات تؤرخ المبنى، بقي منها زهرة الزنبق التي تمثل شعار "نور الدين الزنكي".

إن المساقط الأفقية للبيمارستانات تشبه بوجه عام المساقط الأفقية للمدارس الإسلامية التي شيدت في هذا العصر، ولكن الفارق الوحيد هو أن البيمارستان لا يضم مصلى كالمدارس.

## القلاع والحصون:

بنى السلاجقة وقوادهم من الأتابكة، العديد من القلاع والحصون في معظم مدن الشرق، ولا سيما في المدن السورية والمناطق المتاخمة للحدود. وكان الدافع وراء حركة بناء القلاع هو

الهجمة الصليبية الشرسة على الأمة العربية والإسلامية، ومن أشهر القلاع التي شيدها: قلعتا دمشق وحلب وقلعة جعبر وغيرها.

كما أحاطوا مدينتي دمشق وحلب بالأسوار المنيعة المبنية بالأحجار الضخمة، ودعموها بالعديد من الأبراج والمداخل المحصنة.

إلا أن التعديلات العديدة التي أدخلت على تلك التحصينات، لم تبق على الأسلوب الذي اتبعه السلاجقة في بناء دفاعاتهم، ويمكن دراسة هذه التحصينات التي تطورت في العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث مازال القسم الأعظم من هذه التحصينات قائما إلى الآن، مما يعطينا فكرة واضحة عن الأسلوب الإنشائي لهذه التحصينات.

### المميزات العام للعمارة السلجوقية:

- أول ظهور للمدارس الدينية المستقلة عن المساجد كان في العصر السلجوقي، ذات مخطط واحد تقريبا، يتكون من فناء داخلي وحوله أروقة تتقدم قاعات دراسية بالإضافة إلى الإيوانات، التي كانت سمة مميزة بالعمائر السلجوقية في المدارس والبيمارستانات والمساجد.

- زاد الاهتمام ببناء الأسوار والتحصينات الدفاعية، وهذا الاهتمام أدى إلى ابتكار عناصر معمارية جديدة منها: الفتحات الدفاعية- السقاطات- المداخل المنكسرة. كما ظهرت بعض الزخارف والرسوم لكائنات خرافية القصد منها إثارة الخوف.

- كما اهتم السلاجقة ببناء الأضرحة وهي عبارة عن أبنية مربعة تعلوها قباب يدفن بداخلها الصالحون من رجال الدين، أما بالنسبة لرجال الحكم فكانوا يدفنون في أضرحة على شكل أبراج أسطوانية أو مضلعة، مسقطها مربع أو مثلث، وبعضها محاط من الخارج بمقرنصات من أسفل البناء حتى قمته تقريبا. وخير مثال على هذا النموذج القبة التي تعلو قبر الملك العادل نور الدين في المدرسة النورية بدمشق.

- وشهدت الفترة السلجوقية استبدال المثلثات الكروية بالمقرنصات لتحويل الشكل المربع إلى دائري. ولم يقتصر استخدام المقرنصات كعنصر معماري إنشائي، بل استخدمت كعنصر زخرفي فوق الأبواب وفي الأسقف. وتعتبر المقرنصات ابتكار عربي إسلامي لم نشهده في عصور سابقة.

- أما بالنسبة للزخارف فقد تنوعت عناصرها وتعددت مواضيعها، كما استخدمت الكتابة الكوفية المزهرة والخط النسخي والتثلث كحلية زخرفية، إلى جانب كونها وثيقة لتخليد اسم الحاكم الذي أمر بتشيد البناء وتخليد اسم المهندس المشرف على البناء. كما ظهرت زخارف جديدة منها الخزف القاشاني، الذي زين به جدران الأجر وكان من لون واحد وهو الفيروزي.

د. عبير شدود